كاظم الحجاج وتداعيات الفكر في غزالة الصبا

ا.د صدام فهد الاسدي

منذ ثلاثين عاما عرفت الحجاج شاعراً وسؤلاً غامضاً وهدوءا غريبا وطائراً حط على غصن الشعر مرتين يحمل في جناحه الأمين عام ١٩٧٣م وحكا شهريار وغي جناحه الأيسر عام ١٩٨٧م ايقاعات بصرية ، وهاهو يحمل في منقاره الذهبي غزالة صبه عام ١٩٩٩م ليقدمها على مذبح الشعر والنقد وهو الشاعر الذي عاش صافياً في العطاء والسلوك يسحق ظل الأيام غارقاً في صفحات أحزانه يحمل تراتيله الكئيبة وسيجارته الدائمة ويعيش يومه متأملاً لم يمسس نسمة الهواء الخاطفة بألم ولم يترك في عين أحد دمعة سوى دمعة الحرمان التي فرشتها كلماته على الورق ، تلك الكلمات المتنافرة الأقطاب المتلاحقة في سياق دقيق وهي تستجمع خيوطها لتشدها على حافة شجرة الصندل من جهة ثم بالتوباد من جهة أخرى ، الشاعر الذي لايستخدم الهوامش بل ظلت حصته المتون وأفصحت قصائده لكل الناس عن صفاء وصدق للرؤيا والتزام بالشاعرية فقد خلق الحجاج ليكون شاعراً وأحتفظ بأحلامه وتهويماته بل قدس معاناته ، الشاعر الذي يوزع قلبه بالتساوي بين الناس ولايحرث في الفراغ ولايمتع من اللاشيء صاحب الهوية الواحدة (شاعراً) أما رقمه التقاعدي (١٧٥٣) فهذا رقم مؤقت سوف تنساه الأيام ولكن لاتنسى شاعراً حمل البصرة وساماً والعراق شرفاً وأعطاهما أكثر مما أخذ منهما ومازال يفجر بصمته وهدوئه ينابيع حجاجية تصرخ قائلة : (يصفر وجه البرتقالة كلما قرب القطاف) ولأول وهلة – اسميه (شاعر المكان) لأني أجده يخلق صورة ممتلئة بالقوة زاخرة بالحياة ، لماذا يعرفنا في شهرياره ببارات البصرة (في ليلة السبت التي مرت ، شربنا عند ماري ضاحكين ، نصفا ولم نسكر) ثم يحمل الشكوى بطاقة للسفر وهو يختم جواز سفره عائداً الى العراق (سمعتك من خلف سفوان / تسحبني من يدي الى موطني / فتركت الحقائب ، أفرحني ختم جوازي – شوهد يدخل سفوان) .

وهوينظر الى البصرة ويخرجها من عداد الأمكنة عاكساً موقفاً ايديولوجيا في قصيدة (حدود الوطن) يكشف فيها رمزية الخوف على الوطن وصدق الأنتماء اليه ، فهو مرآته التي يطل منها الى العالم وقد يخجل اذا ختم جوازه عند المغادرة ولماذا

يغادر الوطن ؟ انظر قوله : وتسكن ياموطني رغم بعدك بين الضلوع / وسرعان ماكان رأسي يعود الى مسقط الرأس / في غفلة من رجال الحدود / فأخجل ياموطني أن أجيب / ويحمر بالرغم من صفرة الجوع وجهي .

لقد أكد الحجاج على منظوره الجغرافي (مسقط الرأس) ونراه في دلالة مادية لتجارة البصرة المفتوحة بحراً مع الهند قائلاً :

سترجع الزوارق المهاجرة تعود بالكحل من الهند بالتوابل .

ولو تأملت الحجاج كيف يتألق في انتقاء اللون قائلاً :

لو تعشقين النخل والصفصاف / مثلي وليل البصرة الأزرق / والشط والفانوس والزورق / والماء والأسماك لو تنطق) .

نلاحظ أن الأخضر من السعف يتمازج مع الأصفر في الصفصاف وضياء الشط بمائه والفانوس بنوره اللامع وليل البصرة الأزرق (البارد) يشكل لوحة جمالية قوامها الألوان لارموز فيها وحين تتأمل غزالته تجده يوظف دلالة اللون (مجد الرمانة حب الرمان) (من ضوء مسلوق) (يصفر وجه البرتقالة) (كانت الزرقة موقوته في سقف المساء) .

لذا أحدث الحجاج انقلاباً سلوكياً حين لبس اللون ثوباً مزيفاً (وخدود البنات لم تعد تتورد من حجل صرن يصبغنها) ، كا اعترض على القيم التي فلتت من القافلة (في زمان الشناشيل كان النساء يعلقن أثوابهن بزاوية لايراها الرجال ، والشناشيل خضراء لامعة كالمروج) .

ونحن نقرأ شعرية الغزالة نجد الحجاج لايفرض حضوراً سلطوياً مهيمناً على النص بل يتراوح بين العضوية والتلقائية التي تكاد أن تكون بوحاً يدلل عن أيديولوجية خطاب يتأتى من صاحب تجربة ، فالعنوان يوهمك ولن يقدم لك من الغاب غزالاً حقيقياً بل رمزاً لأمرأة ما ، ربما تكور قلبها وظلها الى مدينة ، ان الشاعر يشيد للبصرة وطناً لايسمح بأن تفلت القصيدة من يديه ، مشيراً في مستهل مجموعته الى الشناشيل (يازمان الشناشيل دار الزمان) وهنا يتوحد الشاعر بالأرض مازجاً بين ثلاثة (الأمس ، اليوم ، الغد) زهو ينزف بلسان الجماعة (دارنا ، جارنا ، كنا)

وتستدعي تلك الأيحاءات الأخبار عن أشياء فلتت من منصة التأمل والأستذكار ، فالدار فقدت مساحتها ، والتحية ضيعت صاحبها